مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ البُرُوجِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة البروج

أ. د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة البروج

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾

ابتدأت سورة البروج بالقسم بثلاث مقسومات، لإثبات وتقرير ما بعدها، ولإثارة الشوق لمعرفة المقسوم عليه، ولبيان أهمية ما أقسم الله تعالى عليه، وأهمية ما أقسم به كذلك، ولفت انتباه الْمُخَاطَبين إلى تأمل ما أقسم الله تعالى به، وما أقسم عليه. فقال تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ أي: والسماء ذات المنازل والمواقع المتعددة، حيث وردت ﴿ ٱلْبُرُوجِ ﴾ بصيغة الجمع، بما يدل على كثرتها وتعددها. فجمعت منازل الشمس حين طلوعها، وحين غروبها، وكذلك القمر، والكواكب، التي انتظمت في حركتها وتنقلها وفق اختلاف بروجها، من غير تضاد ولا تعارض، بالرغم من كثرتها. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تُتخذ عالية عن الأرض، مرتفعة. ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ وهي منازل مرتفعة عالية في السماء[١] وتفيد دلالة البروج الظهور والبروز. فَيُسْتَدَلُ بتلك البروج التي هي منازل الشمس والقمر والنجوم على الأوقات، وعلى أوقات الزرع والخصب، ومواسم الأمطار، وقد فسرها ابن قتيبة رحمه الله تعالى بأنها: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت[٢] ومن دقة التسمية أن سمَّاها الله تعالى بالبروج، لأن من دلالة البروج الظهور والبروز بهيئتها وجمال زينتها، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وأصل البروج الظهور، ومنه تبرج المرأة، بإظهار زينتها[٣] وفي هذا لفت

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٢٦١-٢٦٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٨٤)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣/١٢٥)

الانتباه إلى لزوم تدبر هذا الخلق العظيم، وهذا النسق البديع والدقيق. الذي يُوجب الإيمان بالغيب كما هو الإيمان بالمشاهد. وبما يفيد أن دلائل قدرة ربكم أيها الْمُخَاطَبُون على ما تشاهدون يُوجب عليكم الإيمان والتصديق بما تُخبرون به من الغيب من ربكم العظيم. وبما يفيد أهمية القياس، الذي هو أحد وسائل العلم التي هُدِى الناسُ إليها في الاستدلال.

ثم أقسم سبحانه وتعالى بيوم القيامة، فقال العزيز الحكيم ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾ أي: ويوم القيامة الذي وعد الله تعالى عباده أن يجمعهم فيه، فيبعث الأولين والآخرين. فأظهر عَزَّ وجل يوم القيامة في هذا القسم بأنه ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾ أي: الوعد الحق، الذي لا خلاف فيه. وأنه ثابت لن يتغير عما قرره الله العزيز الحكيم.

ثم تلاه القسم الثالث: فقال الله تعالى ﴿ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴾ فهما حالتان عظيمتان، لشيئين وأمرين عظيمين. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم (الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة)[١] وذكر ابن جرير الطبري وغيره من أهل التفسير أقوالاً، منها: أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة. وقيل: الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم، والمشهود يوم القيامة. وقيل: الشاهد هو الإنسان، والمشهود يوم القيامة. وقيل: الشاهد هو الله تعالى، والمشهود هو يوم القيامة. وقيل: الشاهد يوم الأضحى، والمشهود يوم الجمعة. وقيل المشهود: يوم عرفة. ثم قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى بعد أن أورد تلك الأقوال: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن يقال: إن الله أقسم بشاهد شهد، ومشهود شهد. ولم يخبرنا مع إقسامه بذلك أي شاهد، وأي مشهود أراد[٢] وبالتالي فإن دلالة المعنى تشمل كل شاهد ومشهود، ومنها ما يشاهده الإنسان، فالإنسان شاهد على ما يراه، والمشهود هو الْمُشَاهد من كل ما يُشَاهَد. وتشمل كذلك شهادة الجوارح يوم القيامة على كل مشهود مما فعلت جوارحه. مما يدل على عظيم مساحة دلالة ما احتواه قوله تعالى ﴿ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴾ ليجمع كل شاهد وكل مشهود. مما يدل على غزارة المعنى والمقصد الذي يستثير الفكر، ويستثير تعدد الشواهد، والتخويف من شهادة كل شيء يوم القيامة على ما كان من الإنسان. فهو قسم يحمل وعيداً، ويحمل عظمة الدلالة البيانية، التي تؤكد كل واحدة منها أن هذا القرآن كلام الله تعالى، من قوة بيانه وبلاغة كلامه، وعظيم ما خلق ودبر عَزَّ في علاه.

(١) الحاكم، المستدرك (٣٩٦٣) والألباني، السلسلة الصحيحة (٤/٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٢٦٣-٢٧٠)

ثم أورد الله تعالى جواب القسم، فقال الله عَزَّ وجل ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ أي: لُعِن أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد، وهي الحفرة في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار، عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عَزَّ وجل فقهروهم، وأرادوا منهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا وامتنعوا عليهم[1] ثم ذكر تبارك وتعالى شيئاً من ذلك الحدث المهيب والرهيب من أهل الكفر بحرق أهل الإيمان. فقال تعالى ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ النار المشتعلة، ذات الاتقاد باشتعالها، بما يفيد قوة توقدها ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أي: أن هؤلاء الكفار جالسون بجوار الأخدود، وهم ينظرون في اشتعال النار بالمؤمنين. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إذ هؤلاء الكفار من أصحاب الأخدود ﴿ عَلَيْهَا ﴾ يعني: على النار. فقال تعالى ﴿ عَلَيْهَا ﴾. والمعنى أنهم قعود على حافة الأخدود[2] ثم أخبر تبارك وتعالى عن علة وسبب قعودهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ والكفار على ما يفعلون من إحراق المؤمنين في الأخدود ينظرون إليهم، ويشاهدونهم وهم يحترقون. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أن الذي خَدَّ الأخدود ﴿ وَهُمْ ﴾ الملك وأصحابه ﴿ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم ﴿ شُهُودٌ ﴾ أي: حضور[3] بما يدل على سرورهم بما فعلوا بالمؤمنين، وأنهم قوم غلاظ القلوب، شديدين على المؤمنين حتى أحرقوهم بالنار ذات الوقود في ذلك الأخدود.

ثم يخبر الله تعالى عن سبب هذا العذاب بالنار للمؤمنين، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ فإن ما دافعهم لتلك الحال من القسوة في التعذيب غير أنهم كانوا مؤمنين بالله العزيز الحميد. ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ فما أنكروا عليهم من شيء إلا الايمان ﴿ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ إلا أن صدقوا بالله تعالى المتصف بالعزة، وأنه الحميد المحمود عند خلقه بما أنعم، وبما هدى وأرشد وعَلَّم،. فتم حصر وقصر السبب على الإيمان بالله تعالى، فلم يكن منهم ما يتأذون منه.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٢٦/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٧٨/٢٤)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤١٢/٥)

وورد البيان بدلالة الانتقام ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ والذي يدل على أنه ناجم عن قوة الكراهية لما كان عليه المؤمنون من الإيمان بالله العزيز الحميد، فإن الانتقام يدل على عنف العقوبة بسبب عدم التوافق. فهو مخالف لدلالة الجزاء، لأن الجزاء يكون على المخالفة لما اتفقوا عليه، بينما الانتقام يدل على التعذيب بسبب عدم التوافق. مما يبين دقة القرآن في اختيار الألفاظ التي تحصر المعنى في سياقه بكل دقة، ليظهر بذلك بلاغة القرآن الكريم، وإعجازه البياني.

ثم أورد تبارك وتعالى الاستثناء الذي أفاد الحصر والقصر بأن ليس منهم ما يستدعي ذلك العذاب ﴿ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ فحصر العلة والسبب في إيمانهم فقط، بما ينفي عنهم أي سبب آخر، ولينفي عنهم الاعتداء على الغير، أو الأذى لأحد منهم، بل تم حصره في الإيمان. ثم أخبر سبحانه وتعالى بصفة الذين آمنوا به عَزَّ في علاه، فقال تعالى ﴿ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ إنه الإيمان بالله ﴿ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، وعلى عباده المؤمنين فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. والصفة الثانية لربهم الذي آمنوا به أنه ﴿ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ أي: المحمود عند خلقه بما أنعم به، وبما هدى وأرشد وعَلَّم، وهو الموصوف بالمحامد والثناء، وبكل خير وفضل، وبالتالي هو المحمود على كل شيء، وعلى كل حال. وهو المحمود على غناه، وعلى عطائه، وكرمه. والمحمود على كل أمر، سواء حَمِد العبد ربه جَلَّ شأنه، أو لم يحمده، فهو المستحق للحمد من عباده، لتفضله بالإنعام عليهم بالنعم التي لا تحصى ولا تُعد. فالحمد لله تعالى على ما أنعم به مِن نِعم لا تُعَد، وإحسان منه لا يُحد. مما يبين أن مَن هذه أوصافه سبحانه وتعالى، فالواجب الحذر من إيذاء المؤمنين به. وبما يفيد تجرؤ أولئك الظلمة على عباده سبحانه وتعالى، وبما يفيد أن لهم العقوبة والانتقام من رب العالمين، المتصف بكمال العزة. وبما يفيد التهديد لكل من يريد برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين شراً، فإن ربهم هو العزيز الحميد.

ثم يزداد الوصف لجلاله وقوة سلطانه سبحانه وتعالى. فقال الملك العزيز الحكيم ﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ فإنه سبحانه وتعالى هو لا غيره الذي له ملك السماوات والأرض. فإنها له وحده لا شريك له، وليس لغيره شيء فيها أبداً، ليتقرر بذلك بطلان الشرك، ونفي الشريك، مما يترتب عليه كمال توحيده، وإفراده بالألوهية، والربوبية، والعبادة. فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك كله، وله الخلق كله، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة

جهل كل جاهل بها وعنها. فله وحده سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

وقد شملت دلالة ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ كل ما ارتفع وعلا مما يراه الإنسان ومما غاب عنه فلا يراه. ومن ذلك الأفلاك والأجرام والسحاب، والهواء، والرياح، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وقد شملت ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ جميع ما هو عليها، أو ظاهر على سطحها، أو بداخلها، مما لا يراه الإنسان. فاستوعبت ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان وما لا يراه، لقصور حواسه عن إدراكه ورؤيته، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن.

فهو سبحانه وتعالى مخترع ومبدع هذا الكون، وبالتالي فإن الذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة، وهذا الإبداع فإنه هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته وعبادته وحده لا شريك له. وبما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة مَا خَلَق، فَدَلَّ ذلك على أن كل شيء عبد له، وتحت مشيئته وسلطانه سبحانه وتعالى، وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

ثم يحذر الله تعالى عباده بعظيم علمه ومعرفته ومشاهدته وشهادته على أفعال عباده، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فإن الله تعالى عالم بالظواهر والسرائر، وأنه عَزَّ وجل شاهد على خفايا العباد، وجميع ما كان منهم في الدنيا. فتحقق بذلك الإحصاء الدقيق لأعمالهم إحصاء دقيقاً. ليكون حسابهم وفق ما كان منهم. وفي هذا تنبيه لهم بأن يحذروا من ذلك اليوم بالإيمان والاتباع لدين الله تعالى. وهذا من رحمته وعدله سبحانه وتعالى بأن بَيَّن وعَلَّم الناس ما هم عليه، وما هم مقبلين عليه.

فاستوفت دلالة قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أنه شهيد على أصحاب الأخدود، وعلى غيرهم، وعلى جميع أفعال وأعمال وأقوال العباد. وقد أفادت دلالة ﴿ شَهِيدٌ ﴾ المشاهدة الحاضرة، التي لا يغيب منها شيء. بما يُعطي ويعني قوة التحذير والترهيب. وهي قاعدة تربوية في تهذيب النفس على الخير. فإذا استهوت الإنسان نفسُهُ شراً، تذكر قول الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ لينتهي ويتأدب، وإن رأى ما لا يجوز له رؤيته أو سماعه، قال لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وإن قَصَّرَ في أمر، قال لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وإن أراد وعظ غيره على فعل أو قول لا يجوز له، قال له ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فإنه قاعدة ومحصلة عظيمة في توجيه وتربية وضبط النفس على الخير، والامتناع عن المعصية.

وبعد أن ذكر الله تعالى طرفاً من شأن أصحاب الأخدود، وبيان علة نقمتهم من المؤمنين، بأنه بسبب إيمانهم الذي أغاظ الكفار، فنقموا منهم، ليزداد بذلك التحذير للكافرين في عهده صلى الله عليه وسلم، ولمن بعدهم إلى يوم القيامة. فيخبر الله تعالى بما أعده لأولئك الذين عذبوا المؤمنين بإحراقهم في الأخدود، ولم يتراجعوا عن فعلهم البغيض، فإن لهم عذاب جهنم الشديد. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ إن الذين امتحنوا المؤمنين من الرجال والمؤمنات من النساء، بإحراقهم بالنار في الأخدود. ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ ثم لم يتراجعوا بالتوبة عن كفرهم، وعن ما فعلوه بالمؤمنين والمؤمنات ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ فلهم في الآخرة عذاب جهنم بكفرهم.

ثم عطف الله تعالى على هذا العذاب عذاب آخر، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي: ولهم عذاب آخر هو عذاب الحريق، لقاء إحراقهم المؤمنين والمؤمنات. فإن مما يدل على شدة بغضهم للإيمان والمؤمنين هو تعذيبهم بالحرق حتى النساء، بما أظهر قوة جبروتهم، إذ جمعوا مع الرجال النساء. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن كلا العذابين في جهنم عند الأكثرين. وقد ذهب الربيع بن أنس في جماعة إلى أن النار ارتفعت إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم. فذلك عذاب الحريق في الدنيا. قال الربيع: وقَبَضَ اللهُ تعالى أرواح المؤمنين قبل أن تمسهم النار، وحكى الفراء أن المؤمنين نجوا من النار، وأنها ارتفعت فأحرقت الكفرة[١] مما يحذر به المشركين من تبعات أذاهم للمؤمنين إن لم يؤمنوا ويتوبوا. فقد كان من المشركين عظيم الأذى والفتنة لِضِعَافِهِم من الناس، كبلال بن رباح، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر وغيرهم، رضي الله عنهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

وبعد بيان الله تعالى لشأن أصحاب الأخدود، وما سَيُعَذِّبُ به الكفرة الذين أحرقوا المؤمنين والمؤمنات، ينتقل البيان الكريم إلى توضيح شأن المؤمنين الذين جمعوا مع إيمانهم طاعة ربهم عَزَّ وجل، فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ إن الذين جمعوا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢٢٠)

بين الإيمان، وبين العمل بما أوجبه الله تعالى؛ فإن لهم عند ربهم في الآخرة جنات عظيمة، تجري من خلالها الأنهار.

فهناك شرطان لتحصيل ذلك الفوز الكبير، الشرط الأول: الإيمان ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما الشرط الثاني: فهو ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي الطاعة لله تعالى. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة، فإن قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قد جمعت كل الصلاح. وهي غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله تعالى به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات. فإنه بذلك يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بهما. وسمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، ومع الله تعالى، ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث المؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته. كما يستحث الكفار على المسابقة إلى الدخول في الإسلام، والامتثال لدين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

فمن استوفى هذين الشرطين من الناس فإن ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي: أنها جنات، وليست جنة واحدة، بل جنات متعددة. إذ وردت الجنات بصيغة الجمع ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ ﴾ والجنات

هي البساتين التي تجري من خلالها الأنهار، في جريان مستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري من أسافلها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها، من غير انقطاع. أي: تتدفق من خلالها الأنهار الكثيرة. حيث وردت ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بصيغة الجمع، لإفادة الكثرة والتعدد والتنوع. فقد اتصفت تلك الجنات بكثرة الأنهار ودوام تدفقها من تحت قصورها، وبين أشجارها. فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً. وقد سَمَّى الله تعالى هذا الإنعام العظيم بأنه الفوز الكبير ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ فهو موصوف بالكبير، الذي يدل على العظمة التي لا مثيل لها. وليفيد المبالغة فيه إلى أقصى ما يكون من الفوز. ونعته باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للتعظيم، وإظهاره بما يستحق. فنسأل الله تعالى الفوز الكبير، وجميع المسلمين.

ثم بعد الوعد بالفوز الكبير لمن آمن وعمل الصالحات يتوعد سبحانه وتعالى بالنكال العظيم لمن بقي على كفره. فقال جَلَّ جلاله ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إن أخذ ربك للكفرة بالعذاب إنه لشديد في قوته وأثره عليهم. وقال الله تعالى في سورة الدخان ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وهو الانتقام والأخذ التام بقوة وشدة، فيهلكهم بهذا البطش العظيم في قوته وهوله. ليشمل بذلك ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بتفرده ببدء الخلق وبالإعادة. فقال تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ فإن من كمال قدرة ربكم عَزَّ وجل أنه بدء الخلق كما ترون أيها الناس، وهو الذي يعيدكم بعد موتكم. ليفيد وجوب التأمل في هذا. وبما يبين إعادتهم إلى التفكر في كمال قدرة الله تعالى في بدء الخلق الذي يتأكد به كمال القدرة على إعادة الأموات بعد فنائهم. فمن يبدأ الشيء من العدم فإن له كمال القدرة على الإعادة كما بدأ. إنها محاكمة تعيد العقل إلى صوابه، وتعلمهم كيف يفهمون، بل أوجبت عليهم الايمان من قوة دلالتها.

ومن دقائق البيان أن ورود البدء والإعادة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ بصيغة الفعل المضارع المستمر. الذي يفيد تجدد البدء، وتجدد الإعادة واستمرار ذلك، فلا ينقطع. فهناك المواليد من الإنس، والشجر والدواب، والحشرات، وهناك الإعادة، فيعود المطر بعد التوقف، وتعود الحياة للأرض بعد موتها. ويعود الخير بعد الجدب والجفاف. والصحة والعافية بعد المرض، والغنى بعد الفقر، في حركة لا تنقطع للبدء والإعادة. فإن من ثمار الايمان بقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أنها تُولِّد عند المؤمن التفاؤل، فلا ييأس من كل مراد، ولا قنوط من كل حال. فإن الله تعالى هو الذي يُبدئ ويعيد.

ثم يُطَمِّعُ الله تعالى عباده على الإيمان، ويشجعهم ويحفزهم على ذلك. فيقول تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ فإن ربكم هو لا غيره الذي يغفر الذنوب لمن تاب وعاد عن معصيته وكفره إلى رشده. فقد ذكر

سبحانه وتعالى أنه متصف بصفتين، تحمل اسمين عظيمين: الأول: أنه جَلَّ جلاله ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقبل التوبة، فيمحو ويستر ويغفر الذنوب ويرحم التائبين، لأنه غفور لمن تاب، ورحيم بمن أناب إليه، ورجع عما كان عليه من الذنب، فيرفع عنه جزاء إثمه ومعصيته، ويقبل توبته برحمته تبارك وتعالى. كما أن من دلالتها أن الله تعالى كثير المغفرة، لأن ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ من صيغ المبالغة، فإنه سبحانه وتعالى يرحم عباده المستغفرين التائبين. بما يفيد أن الله ربكم ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ يغفر لكم ويرحمكم إن عدتم إلى رشدكم. وفي هذا تشجيع لكل مذنب ومقصر بأن يتجه إلى الاستغفار والتوبة والإقلاع عن المعصية، واستبدالها بالخير. وهو أعظم وسيلة ودافع من الله الغفور الرحيم سبحانه وتعالى لإصلاح النفس والسلوك والنهج. فالحمد لله رب العالمين على هذه النعمة الجليلة العظيمة، بأنه عَزَّ وجل غفور رحيم. فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله تعالى مهما بلغت الذنوب مع التوبة واستبدال الشر والمعصية بالخير والطاعة والامتثال.

والصفة الثانية: أنه جَلَّ جلاله ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ أي: أنه المحب لعباده، والمتودد لهم، فيغفر الذنوب ويسترها، ويقبل التوبة، ويرحم من استغفر ثم تاب، لأنه يحب عباده سبحانه وتعالى. وهو المتودد إلى عباده بإكرامهم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الودود: أي: المحب لأوليائه، وروى الضحاك عن ابن عباس: قال: كما يود أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة. وعنه أيضاً: الودود المتودد إلى أوليائه بالمغفرة(١) وقال السعدي رحمه الله تعالى: الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء. فكما أنه لا يشبهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولذلك كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها(٢) فاستوفت دلالة ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ كمال العلاقة بين مودة الله تعالى لعباده، ومودة محبيه له جَلَّ جلاله.

وقد أفاد سياق قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ أنه هو سبحانه وتعالى المتفرد بالمغفرة لعباده، والمحب لأوليائه، وليس ذلك لغيره. كما أفاد سياقها المبالغة في المغفرة، والمبالغة في التودد، فهو الغفور الذي يغفر ولا يبالي، وهو المتودد بالعطاء ولا يبالي، فاستغفروه وتوبوا إلى ربكم الغفور الودود.

ثم يُظهر الله تبارك وتعالى كمال مَجْدِهُ وعزته وسلطانه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ فإن ربكم جَلَّ جلاله هو صاحب العرش الموصوف بالمجد من التعظيم والعظمة في سعته، وعلوه فوق جميع الخلائق،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٩٥)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٣٩٧)

وعظمة أوصافه التي لا يُحيط بها المخلوق، فقد وَسِعَ السماوات والأرض. كما أن في تخصيص العرش بالمجد والعظمة لأنه الأخص بالعظمة والقرب من ربه جَلَّ جلاله. فنال ذلك بمكانته من الله تعالى.

وبعد تعظيم الله تعالى لمجده بعظمة عرشه، فإنه أيضاً يُعَظِّم سبحانه وتعالى قوته وقدرته بفعل ما يريد.

فقال جَلَّ شأنه ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أي: يفعل ما يريد كما يريد، ووقت ما يريد، وبالكيفية التي يريد، فلا يستعصي عليه شيء يريده عَزَّ في علاه، ولا يحول شيء بينه وبين ما يريد سبحانه وتعالى، ولا يمتنع لما يقضي به مانع أبداً. ليقرر به عَزَّ وجل تصحيح مفاهيم وعقول من ينكر البعث. بدليل خلقه السماوات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، وحركة الأفلاك، ورجوعها بعد غيابها. فإن ربكم أيها الناس ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ يفعل ويعيد ما يريد. بل أعطت دلالة ﴿ فَعَّالٌ ﴾ المبالغة في فعل ما يريد عَزَّ سلطانه وجَلَّ جلاله إلى كل ما تعلقت به إرادته، فلا يمتنع عليه شيء أبداً. فإنه يُعطي، ويمنع، ويخلق، ويعيد، ويقبض ويَقْدِرُ ويبسط. فله كمال الإرادة المطلقة سبحانه وتعالى.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان في سورة البروج إلى الموعظة بشأن مَن تمَرَّدَ مِن الأمم السابقة، وتكذيبهم بالمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وما نالوه ونزل بهم من العقوبة، فقال الله تعالى ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴾ هل وصلك العلم والخبر بشأن أعداء الله تعالى. ومن قوة البيان ودلائله أنه ورد بصيغة السؤال الاستفهامي عن حدث لم يُعَرِّف به السياق ابتداء. فلم يبين مَن المقصود بالجنود؟ وذلك لإرادة التهويل مع التشويق وشد الانتباه. وقد أورد السؤال للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، فَعَظَّم الْمُخَاطَب، وعَظَّم الخطاب، مع تعظيم وتهويل الحدث. فهو خطاب لجميع العباد، ولكنه في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، فهو يعم جميع العباد بهذا المضمون.

ثم أورد سبحانه وتعالى موضوع حديث الجنود، فقال عَزَّ وجل ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ إنه الشأن المتعلق بفرعون وقومه المكذبين برسولهم موسى عليه الصلاة والسلام، وما نزل بهم من العذاب بالغرق. وكذلك قوم ثمود الذين كذبوا برسولهم صالح عليه الصلاة والسلام. كما قال تعالى في سورة هود ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ﴾ فأهلكهم الله تعالى بالصيحة، فإذا هم في ديارهم جاثمين. ومما يفيد: اعتبروا يا من أَرسَل الله ربكم فيكم محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً. فاعتبروا واتعظوا بمن كان قبلكم.

ثم يخبر الله تعالى عن تعمد الكافرين الكذب بالآيات والحجج. فقال عَزَّ وجل ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ ﴾ إن الذين كفروا منغمسين في الكذب الشديد، فقد وصفهم البيان الكريم أولاً: بالكفر ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: المتصفين بالكفر، القائمين عليه. ثم وصف صفتهم في الكفر، وحالهم وهيئتهم، بأنهم ﴿ فِي تَكۡذِيبٍ ﴾ فإنهم ﴿ فِي تَكۡذِيبٍ ﴾ أي: منغمسين في الكذب بالحق المبين. فورد الوصف بالحال التي هم عليها قائمين، وهو التكذيب بالمرسلين. أي: أنهم في حالة من الانغماس والتلبس به، وارتدائه كمنهج لهم، قائمين عليه. لأن دخول حرف ﴿ فِي ﴾ على التكذيب أعطى دلالة الانغماس التام في الكذب. فإنهم ﴿ فِي تَكۡذِيبٍ ﴾ فهو دليل على أنهم عرفوا الحق، وأيقنوا به، ولكن تعمدوا الكذب، لأنه لا يُوصف بالكذب إلا من عرف الحق وقال بغيره. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فجعل تمكن التكذيب من نفوسهم كتمكن الظرف من المظروف. وفيه إشارة إلى إحاطة التكذيب بهم إحاطة الظرف بالمظروف، فلا يترك لتذكر ما حل بأمثالهم من الأمم مسلكاً لعقولهم. ولهذا لم يقل: بل الذين كفروا يكذبون[1] ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ ﴾ بما يفيد شدة التلبس والانغماس فيه، والارتداء به.

ثم يخبر الله تعالى بكمال علمه وقوة سلطانه الذي أحاط بهم. فقا تعالى ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ فإن الله تعالى قد أحاط بهم علماً وقدرة من حيث لا يحتسبون. فأظهر الله تعالى كمال قدرته بأسلوب الإحاطة، التي تفيد كمال الاحتواء من كل جانب، ومن كل وجه، سواء ما كان متعلقاً بظاهرهم أو ما كان متعلقاً ببواطنهم. كما أعطت دلالة ﴿ مِن وَرَآئِهِم ﴾ أن هذه الإحاطة من غير رؤيتهم لها، حتى إذا أخذهم فإنه يأخذهم بغتة، وبشدة، لكمال إحاطته عَزَّ في علاه. مما يفيد الإنذار والتحذير، وتعليم العباد بكمال قدرة ربهم بهم، وأن عليهم أن يتعاملوا مع رسوله صلى الله عليه وسلم، ومع دينه وفق هذا العلم. فإن من أدرك الإدراك التام بدلالة هذه الآية الكريمة، فإنه يضبط حاله، وجميع تصرفاته وفق مراد الله تعالى. فيخافه في كل أحواله، غيباً كان أو مشهداً. فهي قاعدة عظيمة لمن أيقنها واستحضرها.

فإن أغراه شيء من الباطل، قال ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ وإن رأى من يستوجب النصيحة عن محذور، قال له ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ وإن تقاعس عن واجب وفرض. قال في نفسه ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٨٨/١٢)

﴿ مُّحِيطُۢ ﴾ وإن أراد أحد أن يمكر به، أو يؤذيه تذكر قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ فإنها قوة للمؤمن في كل أحواله.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة البروج بتمجيد كتابه القرآن العظيم، فقال عَزَّ وجل ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴾ فيكذبهم سبحانه وتعالى فيما زعموا بأن القرآن من الأباطيل: وأنه من أساطير الأولين، وأنه من الشعر ولكهانة، فقال تعالى ﴿ بَلۡ ﴾ ليس الأمر كما زعموا من البهتان والأباطيل ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴾ بل هو قرآن قد تناهى في المجد والعلو، وارتفاع المكانة والمنزلة والشرف، والبركة، والعلم، والوعظ، والترغيب والترهيب. وهذا ما يؤكد شدة حاجة الناس إلى هذا القرآن العظيم، الذي اتصف بالمجد في أحكامه، وقضائه، ومكارم أخلاقه، وهدايته إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة. فهو الذي يصل به العبد إلى الجنة إن اتبعه، وسار بهديه.

كما أن حرف ﴿ بَلۡ ﴾ نفي بالإضراب والإبطال افتراءهم، وأكد ما بعده ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴾ كما أعطى اسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ بعد حرف بل ﴿ بَلۡ هُوَ ﴾ التخصيص والتنصيص على أن هذا القرآن هو المجيد. المتصف بدلائل المجد، وبالتالي فإنه يُمَجِّد من أخذ به، فيصنع له المجد في الدنيا، وفي الآخرة. كما ورد في الحديث (يُقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأ بها)[1] وقد أقسم الله تعالى به في سورة: ق. فقال عَزَّ وجل ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ بما يدل على عظمته ومجده ومكانته ومنزلته العالية الرفيعة.

ثم ازداد التمجيد للقرآن الكريم ببيان مكانته ومكانه في السماء، فقال الله تعالى ﴿ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ أي: أن هذا القرآن المجيد هو ﴿ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ أي: قد أُثْبِت وحُفظ، فإن مكانه ومكانته أنه في الملأ الأعلى، فلا يدخل عليه تحريف أبداً، لأنه محفوظ. مما يدل على عظيم منزلة كتاب الله تعالى القرآن العظيم. وبما

(١) أبو داود، السنن، برقم (١٤٦٤) والترمذي، برقم (٢٩١٤) الألباني، السلسلة الصحيحة، برقم (٢٢٤٠)

يبين أن من أخذه علماً وعملاً وتعليماً فقد فاز بخير الدنيا والآخرة. اللهم اجعلني من أهل القرآن، وممن خدم القرآن وممن عمل بالقرآن، وجميع من أخذ واعتنى به من المسلمين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة البروج. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.